

تهم الهراطقة

يرثها القرن العشرون عن العصور الوسطى

شهد العالم منذ أربعة قرون بدء معركة حامية الوثايس بين الدين والعلم . وعلى أن المعركة في الواقع كانت بين صور اللاهوت المذهبي وبين العلم ، لا بين الدين والعلم ، فان فئة من أشهر كتاب القرن الماضي وعلى رأسهم العلامة درابر في أمريكا والعلامة ليكي الايرلاندى في أوروبا ، قد مضوا يعبرون عن المعركة بأنها معركة بين الدين والعلم ، حتى ظهر كتاب العلامة الكبير جون ديكسون وايت فظهر ان النضال لم يقيم بين الدين والعلم ، وانما قام بين صور اللاهوت المذهبي وبين العلم . ولقد انصرف كثير من الكتاب في نهاية القرن التاسع عشر يحملون الكنيسة الرومانية تبعة كل ما يرويه التاريخ من وقائع هذا النضال الكبير ، ويعزون اليها السبب في صد خطى العلم . كأنه لم يقم بجانب هذه الكنيسة كنيسة أخرى ، هي الكنيسة البروتستانتية ، كان لها من الاثر في مقاومة العلوم الحديثة بما لا يقل عن غيرها من الكنائس . والحقيقة أن تاريخ النصرانية يقص علينا من الوقائع ما يساوى عند المؤرخين بين مسئوليات الكنائس المختلفة ازاء هذا الامر . على أن كل مافى استطاعتنا أن نقول هو أن الصراع مع الدين ديارث ورثة لوثر واتباعه عن أساطين الكنيسة الرومانية وقد يسيها الذين ظهروا منذ أبعد عصور النصرانية حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

لما أظهر غاليليو مافى نظرية كوبرنيكوس من حق ثابت ، وأظهر المنكرين من خلال المنظار جبال القمر وكأف الشمس وأوجه الزهرة ، أخذت الكنيسة الرومانية الامور في يدها وعهدت الى محاكم التفتيش بان ترد الهراطوق عن غيه وان ترجعه الى حظيرة الكنيسة ، لا بالبرهان ولا بالدليل ، ولكن بالخلعة والسندان وغيرها من آلات العذاب التي لم يكن لدى الكنيسة سواها من وسائل للاقناع طوال القرون التي احتكت فيها مذاهب اللاهوت في النفوس والعقول . غير أن هذا لم يقعد لوثر واتباعه عن أن تتحرك أقلامهم بما يزيد النار ضراما والعقول خبالا .

قال لوثرفي رده على كوبرنيكوس: « يصنعى الناس الى منجهم مأفون يحاول أن يثبت أن الارض تدور ، وليس كذلك السماوات والافلاك والشمس والقمر . ولا جرم ان كل من يريد أن يحوز شهرة اللباقة والذهي ، يحاول أن يثبت مذهبا جديداً مزاعماً أنه أصح المذاهب وأصدق الحقائق . غير أن هذا الممسوس يريد اليوم أن يقلب قواعد علم الفلك رأساً على عقب ، في حين أن نصوص الكتاب المقدس تدل على أن « يوشع » قد أمر الشمس أن تقف ، ولكنه لم يأمر الارض »

أما ميلانكوتون ، فانه لم يقتف خطوات لوثر ، فكان أكثر وداعة والين عريكة . فقال في كتابه المعروف « عناصر الفوسيقى » والذي طبع بعد موت كوبرنيكوس بستة أعوام ماله : « ان ابصارنا تشاهد السماوات تدور في مدى أربعة وعشرين ساعة . غير أن أناساً دفع بهم حب التبشير بالجديد ، قد أذاعوا أن الارض تتحرك ، وأن ليس كذلك الفلك الثاني ولا الشمس . أما اذاعة مثل هذه المبادئ علناً ، وبها في الناس عياناً ، فليس من سمو الهة ولا من الامانة في شيء . لان ذلك يعطى الناس مثلاً



مارتن لوثر — عن نسخة قديمة نادرة
١٤٨٣ — ١٥٤٦

خطراً مبعوض النتائج . والواجب على من يطلب الخير وينشده ، أن لا يحيد عن الحق كما انزله الله في كتابه ، وان يخلد له »
ومضى ميلانكوتون بعد ذلك ذاكر أمقطوعات من المزامير والامتون الكنسية برأى أنها تؤيد بجلاء وصراحة مذهب ان الارض ثابتة تماماً وان الشمس تدور من حولها ، مضيفاً الى ذلك ثلاثة براهين اخرى ايد بها زعمه مستخلصاً منها : « ان الارض لا يمكن أن تكون في مكان ما لم تكن في وسط الكون » وأمعن بعد ذلك في القول بأنه من الواجب أن تفرض عقوبات شديدة تصد الذين يريدون أن يبشروا للناس بتماليم كوبرنيكوس عن تبشيرهم ، وتزجرهم عن غيرهم .
(٤ — ع)

ولم يقتصر الأمر على لوثر وميلانكوتون ، بل شايهم في ذلك كثير من شعب الكنيسة البروتستانتية . فان كالفن قد تبوأ بكتابه « تعليقات على سفر التكوين » مكان الزعامة من هذه الشعبة في الحملة على كوبرنيكوس وأشياءه ، وأعلن كفران كل من يقول بان الارض ليست في مركز النظام الكوني . وبعد أن عهد الى المزامير يستدر وحها مستنداً الى مقطوعات أخذها عن المزمور التاسع والثلاثين تساءل : « من من الناس يجرؤ عن أن يضع سلطة كوبرنيكوس فوق سلطة الروح القدس . »

وعلى هذا الراى كان « تريتان » خليفة كالفن المعروف . فانه أذاع ، حتى بعد أن مكن كبلر ونيوتن لنظريات كوبرنيكوس وغاليليو وأنبياءها ووضعها لقواعد ثابتة التي لا تزول ، مختصره اللاهوتي ، محاولاً أن يثبت ، مستعيناً بكثير من نصوص الكتاب المقدس ، ان السماوات والشمس والقمر انما يدرن من حول الارض ، الله هي ثابتة في مركز النظام الكوني .

وانك لتقع في انجلترا على مثل هذا الجهد اللاهوتي ، حتى بعد ان اثبتت التجارب أنها جهود بائرة لا نتيجة لها . فان هتشنسون في كتابه « مبادئ موسى » ودكتور « صموئيل بيك » في كتابه « الفلسفة المقدسة » وهورن والاسقف هورسلي والرئيس فوربس في كتاباتهم الكثيرة ، قد قاوموا مبادئ نيوتن كل مقاومة ، بل هاجموا مستعينين على نقضها بنصوص من الكتاب المقدس . وكذلك دكتور جون أوين وهو علم من أعلام المذهب البيوريتاني ، فانه أعلن ان نظام كوبرنيكوس ليس باكثر من « خيال وفرض مناقض لنصوص التنزيل » . ولم تعد هذه القاعدة « جون ويسلي » فانه أعلن ان الآراء والمبادئ الفلكية الجديدة « انما تسوق الى الكفر والاحاد . »

في أواسط القرن السادس عشر عاش في « ويتنبرج » مركز الدعاية البروتستانتية ، فلكيان حاز كلاهما شهرة واسعة وصيتاً بعيداً ، هما ريتيكوس ورينولد ، وكلاهما درس مذهب كوبرنيكوس واعتقد بانه حق ، ولكن لم يسمح لهما بان يلقنا ذلك الحق الثابت لطلابهما . فلم يستطع ريتيكوس ، لا في محاضراته ولا في مؤلفاته التي نشرها ، أن يذيع المذهب الجديد . ولما ضاق بذلك ذرعاً ، ترك منصب الاستاذية في ويتنبرج حتى يتاح له أن يبحث حراً وراء الحقيقة ، وأن يذيعها .

ولم يك رينولد باسعد من زميله حظاً. فانه فضلاً عن اقتناعه وإيمانه بصحة المذهب الجديد، كان مقسوراً على أن يدافع عن المذهب القديم الفاسد، وان يلقيه لطلبته، وكان مجبراً على ان لا يذكر الفكرات الكوبرنيكية، الا لينصر عليها فكرات بطليموس. على أنه لم يكن بذلك في مأمن من أن يناله الأذى والكفران. فقد عهد بتدريس علم الفلك في تلك الجامعة بدلا عنه الى أستاذ غيره يدعى بيوسر وذلك في حدود سنة ١٥٧١. وقد أعلن حينذاك ان في هذا الاستاذ الجديد من حسن التقدير ورجاحة العقل قدراً جملة على ان يرفض نظرية كوبرنيكوس معلناً في محاضراته أنها « مناقضة لبديهة العقل وغير جديرة بان تلقن في معاهد العلم ». ومن أجل أن تصبح تلك الفكرات اللاعلمية أكثر استقراراً في التعاليم التي كان يذيعها البروتستانت في ألمانيا، وضع الكاهن هنسل مختصراً يدرس في دور العلم عنوانه « الرجوع الى النظام الموسوى في أصل الكون » أظهر فيه ان مبادئ كوبرنيكوس الفلكية مناقضة لنصوص الكتاب المقدس.

ولا شبهة في ان هذه الحملة الكبيرة كان لها أثر بعيد. غير ان صداها مازال يتجاوب في حقب الزمان حتى انتهى الى البروتستانتية الحديثة حيث رن صداها ثانية في طرد السلطات المشيخية لدكتور « وودرو » في كارولينا الجديدة، وفي طرد السلطات العمادية للاستاذ « توى » في كنتكى، وفي طرد الاساتذة من جامعة بيروت الامريكية تحت تأثير السلطات البروتستانتية. وكل هذا وقع في بضع السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر.

من بين الكتب التي ظهرت بارشاد الكنيسة الرومانية بعد ادانة غاليليو أمام محكمة التفتيش رامية الى اقتلاع جذور النظرية الكوبرنيكية من عقول الناس، نختار كتابين نتخذهما مثالا للاراء اللاهوتية وعظمة تنقي بها محكم الروح الدينية في وضع برامج الجامعات. الاول كتاب خطته يراعة « سيبيو شيارمونتى » وأهدى الى الكردنبال « برينى » ومن بين البراهين التي اقامها ضد دوران الارض نذكر البرهان الآتى :

« للحيوانات التي تتحرك أطراف وعضلات. أما الأرض، فليس لها أطراف ولا عضلات. فهي على ذلك لا تتحرك. أنها الملائكة التي تحرك زحل والمريخ

والشمس وغيرها في دورتها . فاذا كانت الارض تدور ، فينبغي ان يكون لها ملك في مركزها يدفعها الى الحركة . ولكن لا يأتى في مركز الأرض الا الشياطين . فلا بد من أن يكون شيطان ذلك الذى يعطى قوة الحركة للأرض . « ان السيارات والشمس والاجرام الثوابت انما تتضمنها فصيلة واحدة ، هي فصيلة النجوم . وظاهر أنه من الخطأ الفاحش أن توضع الأرض ، وهي مباءة القاذورات ، بين تلك الاجرام السماوية ، التى هي أشياء قدسية نقية طاهرة » أما الكتاب الثانى فكتاب « بولا كو » المسمى « الكاثوليكي ضد كوبرنيكوس » وقد اراد فيه كاتبه أن يوجه لهرطقة غاليليو سهماً مسدداً فقال :

« ينص الكتاب المقدس دائماً على ان الأرض ساكنة ، وان الشمس والقمر ماضيان في حركتهما . ولكن اذا راينا يوماً أنهما ثابتان لا يتحركان ، فان الكتاب المقدس ينص على ان ذلك إما يكون لمعجزة كبرى . »

« ان هذه المطالبات يجب ان تحظر حظراً باتاً ، لأنها تبشر بمبادئ في موقع الكرة الأرضية ودورتها تناقض نصوص الكتاب المقدس ، وتنافى التفسير الكاثوليكي لتلك النصوص ، وتزعم بان هذه المبادئ حقائق لا مجرد فروض تخيلية » ولما اراد ان ينقض الحق الجديد براهين مقتطعة من المشاهدات الطبيعية قال : « اذا سلمنا بان الأرض تتحرك ، لما أمكننا ان نعلم السبب في ان سهماً يطلق عمودياً في الهواء يعود الى الهبوط في نفس المكان ، بينما تكون الأرض وكل ما عليها ، حسب التعاليم الجديدة ، مندفعة في الوقت نفسه بسرعة فائقة ، متحركة نحو الشرق . ومن ذا الذى لا يرى ان فوضى عظيمة في نظام الاشياء من اللازم ان تترتب على مثل هذه الحركة . »

ولما عمد الى الغيبيات الفلسفية قال :

« إن حركة الأرض حسب نظرية كوبرنيكوس أمر مخالف لطبيعة الأرض ذاتها . لأنها ليست فقط متبردة صلبة ، بل أنها تحوى في عناصرها طبيعة البرودة أيضاً . ولا خفاء ان البرودة تقاوم الحركة ، بل أنها تمنعها بقة ، كما هو الظاهر في الحيوانات ، فانها تعجز عن الحركة إذا بردت . » ولما رجع الى أسلوب التفكير اللاهوتي قال :

« مادام في مكنتنا ان نثبت من نصوص التنزيل ان السماوات تتحرك من

فوق الأرض ، وما دامت الحركة الدائرية تستلزم وجود شيء ثابت من حوله تحصل الدورة ، إذن فالارض ثابتة في وسط النظام الكونى . »



بطليموس النلكى — بدأ أبحاثه بالاسكندرية
سنة ١٢٧ وختمها سنة ١٥١ بعد الميلاد

على هذا كان رأى الكنيسة

الرومانية ازاء غاليليو . على ان الكنيسة البروتستانتية لم تكن باقل نشاطاً وحقاً في مقاومة المبادئ الجديدة في علم الفلك من الكنيسة الرومانية . فان العلم المقدس الذى وضع أصوله أول المصلحين من اتباع لوثر قد انتقل الى الاجيال التالية كاقديس ميراث وأمن تراث ، ولم يزد في القرن الثانى الا قيمة وتقديساً ، وعلى الاخص بتأثير كالفيناس ، فان

سعة عامه وصلاته المستمدة من روح الكثرة ، قد عقدت له لماء الزعامة على اللوثرين . غير أنه رفض كل رفض ان ينزل على حكم العلم الصحيح والحقائق الثابتة فلجأ الى اللاهوت مستنداً الى القول الدائع في رجوع الظل على مزولة الملك حزقيا (١) . وفي وقوف الشمس ليوشع ، منكر دوران الارض ، نافياً كل مظهر من آيات العلم الحديث ، على اعتبار أنها مناقضة للتزويل . وحتى اليوم —

(١) « في تلك الايام مرض حزقيا الملك للموت فجاء اليه أشعيا بن آوص النبي وقال له : هكذا يقول الرب . أوص يا نيك لانك آوت ولا تعيش . فوجه حزقيا وجهه الى الخائط وصلى الى الرب وقال : آه يارب اذكر كيف سرت أمامك بالامانة وبقلب سليم وفلت الحسن في عينيك . وبكى حزقيا بكاء عظيماً . »

« فصار قول الرب الى أشعيا اذهب وقل لحزقيا . هكذا يقول الرب آله داود أليك . قد سمعت صلاتك . قد رأيت دموعك . هاأنذا أضع الملائكة خمس عشرة سنة . ومن يدملك أشور أنقذك وهذه المدينة . وأحامي عن هذه المدينة . وهذه لك العلامة من قبل الرب ، على ان الرب يفعل هذا الامر الذى تكلم به . هاأنذا أرجع ظل الدرجات الذى نزل في درجات آحاز بالشمس عشر درجات الى الوراء . فرجعت الشمس عشر درجات من الدرجات التى نزلتها . » عن الاصحاح الثامن والثلاثين من سفر اشعيا .

فى القرن العشرين قرن النور والمدنية - يردد اللوثريون فى أميركا براهين كالوفياس وعلى الاخص من كان منهم ذا نزعة كاثوليكية فى ميوله الدينية .
ولقد حدث فى إنجلترا أن أعلن دكتور «سميث» وهو من اعظم اللاهوتيين ان الجمعية الملكية العلمية انما هى جمعية تعمل ضد الدين ، وان أعضائها ملحدون .
وكان من بين البيوريتانيين العلامة «جون أوين» الذى أذاع ان مستكشفات نيوتن «قد قامت على ظواهر غير ثابتة وانها مبنية على فروض عقلية تعارض النصوص الصريحة التى جاء بها الكتاب المقدس .» وانك لتعجب اذ تعرف ان الشاعر ملتون الانجليزى قد وقف متراوفا بين الناحيتين . ففى أول كتابه الثامن من قصيدته المشهورة «الفردوس المفقود» ينطق بلسان آدم مكرراً ما اعترضه من صعاب فى فهم النظام البطليموسى ، فيرسل اليه بملك يعيد على اسمه ما أجاب به رجال الكنيسة فى تفسير ذلك النظام الكونى . ولكن الظاهر ان ملتون قد رجع بعد قليل الى النظر فى نظرية كوبرنيكوس نظرة نقد وتحليل .

على أن النزعة الانجليزية الى روح الكثرة مازالت تهتد عليه جهدها فان «جون ويزلى» بلجونه الى تلك الطائفة التى تفرض على العقل ان يمضى عاكفاً على نصوص التنزيل لا يعدوها ، قد حمل على ان يعاون «ان صناعة السحر اذا لم تكن حقيقة واقعه ، فلن يصح لدنيا من شئ جاء به الانجيل» . بل أنه مما يدل على دقة هذه العقلية ، ان هذا الباحث بعد ان اقتاده خطواته الى القول بفساد نظرية بطليموس واقرار نظرية كوبرنيكوس على وجه عام ، انقلب أزاء مستكشفات نيوتن شاكاً غير ثابت اليقين . على أنه من حسن الحظ أن كرامة محتده ونباله أرومته ، قد حالت بينه وبين التردى فى مهاوى الحقد ، او ان يذهب بضحيته لروح العمالة لئلا يفسد ما راى شئاً من موحيات التعصب المذهبى . الى كان من شأنها ان تنوق خطا الذين آتوا به من بعده عن الموع الحق واليقين .

وما قولك بموقف الكنيسة ازاء الخلق والنشوء . فإليك ان وقفت على بضع تصورات فاضت بها الكنيسة على العالم فى القرون الوسطى معللة حقيقة الخلق ظانك ولا شبهة تعرف كيف ان اللاهوت المذهبى لا يزال مؤثراً أثرة فى تصورات رجال الدين فى القرن العشرين ، وتعرف لماذا حرم تدريس مذهب النشوء فى

أمريكا خلال العام الفارط ولماذا طرد الاستاذ سكوبس من جامعة من أشهر جامعات الدنيا الجديدة لانه بشر لتلاميذه بنظرية النشوء والارتقاء .

من بين مجموعة النقوش الكاتدرائية التي تعبر عن كثير من حقائق اللاهوت في القرون الوسطى ، نقش يمتاز بالتعبير عن مذهب لاهم تي في أصل الكون ، ظل موضع الاحترام والاحلال أزماناً طويلاً .

الواحد القهار في صورة بشرية حارس بوداعة ولين ، لصنع الشمس والقمر والنجوم ، ويعلمها في القبة الصلبة التي تحمل من فوقها السماوات العلا ، وتظل الأرض السفلى .

أما علام التفكير الظاهرة في تقطع جبينه فتتم على أنه أجهد نفسه امعاناً في التدبر والاستبصار ، كما يدل انتفاخ عضلات ذراعيه على أنه قد اضطر الى أن يكذب وينصب . ومن الطبيعي ان يكون المثلون والمصورون خلال القرون الوسطى ، وفي بدء العصور الحديثة ، قد عمدوا الى تمثيله على مقتضى ما تصوره كتاب ذلك العصر ، اذ كانوا يقولون بأنه استراح في اليوم السابع واضطجع في هدأة ، مصحفاً الى تراثيل الثناء التي زفتها له سكان السماء .

ومن حول هذه الأفكار العتيقة التي فاضت بها الكنيسة ، وفي غيرها من الآراء التي عبرت عنها النقوش والصور وتلوين الزجاج وزخارف الفسيفساء والحفر خلال العصور الوسطى ، وقرنين فرطاً من بعد تلك العصور ، تكثفت نواة من الاعتقاد كانت قد أخذت تتكون خلال ألوف من السنين ، ومضت محتكمة في كل ما أبرز العقل الانساني من صور الفكر حتى نهاية القرن التاسع عشر .

أما بدايات ذلك الاعتقاد فترجم الى أعرق عصور التاريخ الانساني قدماء . فالتناجدها في بدايات كل مدنية من المدينيات العظمى . بيد أنها شغلت في كل الكتب المقدسة التي ذاعت في نواحي العالم ، على تعددها وكثرتها ، مكاناً علياً . خفي كل المدينيات تقع على فكرة وجود خالق ، ليس الانسان الا صورة منه غير كاملة ، وأنه خلق الكون المنظور ، بطريقة مباشرة مستخدماً في الخلق يديه وأصابعه .

من بين تلك النظريات عدد غير صغير مضى محتكماً في اللاهوت الكلداني .

ومن الواجب علينا أن نخصه بشيء من العناية والتقدير ، فإن النقوش الاشورية التي استكشفت حديثاً ، ونقلها الى العالم الحديث أعلام من أمثال لا يارد ، وجورج سميث وسائيس وغيرهم ، لترينا أنه قد تغلغت في تضاعف الاديان الكلدانية والبابلية ، قصة في حقيقة الخلق ، من أهم مزاياها وأخطر تفاصيلها ، أنها لا بد من ان تكون النواة التي فرخت منها تلك القصص التي تقع عليها في كتبنا المقدسة . ولقد ظهر باجلى بيان ان تلك الأفكار التي تشغل أعلا مكانة في أسفار الكلدانيين ، قد استمدت من ذلك النبع الذي فاض على المدينيات الكلدانية البابلية والاشورية . والمنسجمة تلك القصص التي وضعت في حقيقة خلق العالم . ففي بينك القصتين اللتين تخالطتا معاً في سفر التكوين ، وفي تلك الرواية التي يمكن ان يستدل عليها بأشياء في سفر آتوب يتمثل لك بكل ما يستع أن تتخيل من العظمة والقدرة ، نفس ذلك التصور في حقيقة الخلق والخالق ، وهو تصور خالق بالمدينة إذ هي بعد في مهد طفولتها وغرارتها ، إذ يبرز لك الخالق في صورة بشرية مكبرة ، وهو يكبد في العمل بأطرافه ، ويمثل لك الخلق مصنوعاً بيده . ولقد نشأ ، تعقيباً على هذا التصور ، اعتقاد في الخالق على أنه شخص بعد ان قذف من راحة يده الى الفضاء بكل السيارات لتجوب كل أنحاء المكان ، جلس في العلاء فوق العرش المستقر على فلك السماء ، حاداً أبداً في ان يحكم سيرها ويهدها طريقها .

ومن هذه النظرية الموضوعية في حقيقة الخلق ، نشأت مع الزمان فكرة أخرى ، أكثر ارتقاءً وأنبى قصداً . ففكرو القدماء ، ومفكرو مصر على الأخص ، كما اتضح منذ عهد قريب ، قدمضوا معتقدين بأن السبب المباشر في الخلق ليست يد الخالق ولا أصابعه ، بل صوته . ومن هنا تخالطت بالمعتقدات الفطرية الأولى التي ذاعت في أصل الأرض والأجرام السماوية بقدرة الحي القيوم ، فكرة أكثر للشعور مساً ، وأعمق في التصور تغلغلاً ، فقل بأنه « تكلم وأنها خلقت » ، وأنها برزت الى عالم الوجود متأثر « الكلمة » .

أما هذه النظرية العامة في أصل الخلق ، فقدمضت مستبدة بامرها في تصورات آباء الكنيسة الأولى ، وأصبحت معتقداً مستفاداً من معتقاداتهم . حتى أنهم ألزموا النصرانية تدرجاً ، وعلى مر الزمان ، الثبات على الاعتقاد بأن السكون قد خلق تماماً كاملاً بيد الله أو صوته .

بين آونة وأخرى ظهر من بين اللاهوتيين « خوارج » امتازوا بشيء من رجاحة العمل وسعه النظر ، حاولوا أن ينظروا في خلق بعض اجزاء من مفصلات الكون نظرة امعن من سابقها تغلغلا في صميم الروحانيات وعلى الأخص « غريغورى النياسى » والقديس « أوغسطين » . وكانوا على استعداد لان يقبلوا النصوص الحرفية التى جاءت فى المتون المقدسة ، لهذا ثاروا ضد ذلك التصور ، تصور أن العالم خلق بتأثير ذات كلية القدرة ، كونه بيدها وأصابعها ، وتابعهم فى ذلك « بيده » Rede . قليل غيره . غير أن آراء أكثر من غيرها إمعانا فى الماديات ، كانت لاتزال سائدة على العقول ، حتى إنك تجد آثارها ظاهرة فى النقوش وزخارف الفسيفساء وتلوين الزجاج فى الكاتدرائيات ، وفى الرسوم التى تحلى بها كتب القديس والمزامير ، حتى فى الاناجيل المصورة ، وكتب المعرفة العامة التى ظهرت خلال القرون الوسطى .

أما فى العالم الأنجلو سكسكونى فقد أحكم عرى هذا التصور المادى القديم شاعران ، خصت أشعارهما بالتوقيع على أوتار تلك المشاعر الدينية العميقة . ففي القرن السابع عشر فسر الشاعر « كادمون » Coedmon الاقوال التى جاءت فى سفر التكوين وفصلها تفصيلا أفرغ به ذلك التصور المادى فى خلق الكون فى حلة محبوكة الاطراف على ظاهر المتون المقدسة . وبعد ذلك بألف سنة أخذ « ملتون » Milton من النصوص الكثيرة التى جاءت فى كتب العهد القديم قدراً مزجه بفكرة لاهوتية فى « الكلمة الخالقة » استمدت فى أصلها من كتب العهد الجديد ، ومضى على هذا يصف كيف خلق الاقنوم الثانى من الثالوث الإلهى ، العالم بتفاصيله ، فجاء وصفه صورة من الافكار اللاهوتية والنصوص المقدسة ، لاتدانيها صورة أخرى لزوماً لظاهر الجمل والالفاظ .

قال فى أسلوب شعري رائع :

« أخذ البيكار الذهبى الذى كان معداً فى خزائن الله الأبدية السرمدية ليخطط حدود الكون وكل المخلوقات . ووضع أحد طرفيه فى المركز وأدار الطرف الآخر دورة حول تلك الاغوار البعيدة القصية ثم قال : الى هنا تمتد حدودك وإلى هنا ينتهى محيطك : أيها الكون . »

هذا هو التصور الاورثوذكسى فى الاسلوب الذى خلق به العالم .

أما المسألة الثانية التي أنشأها ذلك التصور اللاهوتي ، فكانت ذات علاقة « بالمادة » التي صور منها العالم ، ومضت الاغلبية العظمى من أهل اللاهوت مقتنعة بأنه لم توجد مادة ما قبل خلق الكون وأن « الله خلق كل شيء من لا شيء . » من اللاهوتيين فئة خست بشيء من الشجاعة والاقدام ، أشاروا اعتماداً على النصوص الاولى التي وردت في سفر التكوين ، الى فكرة اخرى مغايرة لتلك الفكرة ، ومؤداها ان الكتلة المادية قد وجدت قبل وجود الكون ، ولكنها كانت « بلا صورة وفي خلاء لامتناه » . عبر ان هذا المذهب اكتسح سراعاً من عالم المعرفة .

أما معتقداباء الكنيسة فكان جلياً واضحاً هذا الامر . فان « تيرتليان » Tertullian قد انتحى أكثر الطرق حزمًا وشدة ازاء الذين كانوا يعتقدون بآية فكرة مضادة للفكرة التي اعتنقها زعماء الاورثوذكسية . بل اعلن بأنه اذا وجدت آية مادة اولية صنع منها الكون ، فلا بد من أن تكون الكتب المقدسة قد أشلت النيران . أما وأن هذه الكتب لم تشر اليها ، فان الله قد أمدنا بانصع برهان نداننا على أنه لم يوجد قبل الخلق شيء كهذا . وعلى اسلوب فيه من العسف قدر لم يعرف له مثيل في أي خلاف لاهوتي اخر ، هدد « هرموجينيس » وكان من مؤيدي الرأي القائل بقديم المادة ، « بالويلات التي تنصب على أولئك الذين يزيدون الى الكلمة القديمة أو ينتقصون منها . »

أما القديس أوغسطين ، وكان ممن أشار تلميحاً الى الاعتقاد بوجود المادة قبل الخلق ، فقد وفق بين ما كان يرى من رأي وبين المعتقد السائد في حدوث المادة ، ببرهان ساذج بسيط اذ قضى : « بأنه على الرغم من أن العالم لا بد من أن يكون قد صنع من مادة ما ، فانه من المحتوم ان تكون هذه المادة دائمة قد حتمت من البدء بذات ذى بدء . »

في الطريق التي رسمها هؤلاء العظماء سارت الكنيسة العظمى هادئة مطمئنة . ولقد صرح المجمع اللاتيريني الرابع بان الله قد خلق كل شيء من لا شيء . وانك لتجد حتى اليوم ان ارهاط المؤمنين سواء كانوا كاثوليك ام بروتستانت ، لا يلقنوا ازاء هذا الامر من شيء سوى ما يوحى به هذا المذهب . وعلى هذا

الامر اتفق البابا به س التاسع في مختصره الديني ، وكنيسة وستمنستر في كتاب
أصول الايمان .

وبعد أن فرغ اللاهوتيون من الكلام في طريقة خلق الكون ومادته ، رجعوا
الى الكلام في « الإيمان » الذي تم فيه ذلك العمل العظيم .

هنا اعترضتهم مشكلة . فان أولى الروايتين اللتين جاءتا في سفر التكوين تنص
على ان عمل الخلق قد تم في ستة أيام ، كل يوم نهار وليل ، بما في ذلك تفصيل
كل ماتم في كل منها ، على صورة تامة من الدقة والضبط . أما الرواية الثانية
فتذكر « اليوم » الذي صنع فيه « الله الارض والسموات » . ولقد كان لما
اتصفت به الرواية الاولى من الدقة وملاءمتها لطبيعة ما تكونت عليه عقول العديد
الأوفر من متقدمي اللاهوتيين ، قوة حازت بها قسماً من الاسبقية وقوة البقاء .
غير أن مفكرى اليهود من أمثال « فله » ~~نكرى للنصرى~~ « أمثال » « أو ديف » ،
وقد حاولوا أن يكونوا في الخلق وخالقه تصورات أرقى نزعاً وأزهد قصداً ، لم
يقنعوا بهذا ، فالتقوا في بحر اللاهوت النصراني المضطرب المتدافع القوات ،
بفكرة ان الخلق كان موقوتاً وفي لحظة واحدة . ولم تستمد هذه النظرية عنصري
القوة من الجزء الثاني من أساطير سفر التكوين وحدها ، بل كان يؤيدها النص
اللقائل ، « تكلم نخلت العوالم ، وامر فبرزت ثابتة . » او كما جاء في النسخة
اللاتينية من الكتاب المقدس ، « تكلم فصنعت العوالم . وامر نخلت . »

كان من نتائج ذلك ان برزت من تداي العقل فكرة ان اقوم طريق واسلم
سبيل يتبعه المؤمنون هو الاعتقاد الكامل بكلا النظريتين ، « أذ الله بطرقه
خفية قد خلق الكون في ستة أيام » بيد أنه أرزاه الى الوجود فجأة وفي لحظة
واحدة . وعلى الرغم مما أهاب به عدد عديد من عظماء اللاهوتيين مثل افرام
سيروس وغيره من أن الكون قد خلق في ستة أيام تامة كل منها أربعة وعشرون
ساعة ، فان نزعة التوفيق بين تلك الروايتين المتناقضتين قد أيدها القديسان
انثاسوس وباسيل في الشرق ، والقديسان أوغسطين وهيلاري في الغرب .

ولقد نشأت صعاب اعترضت سبيل اللاهوتيين في التوفيق بين هاتين
النظريتين ، اللتين لن يقوما معاً في عقل قياسي ، لما بينهما من الخلاف والتناقض .
غير أنهم بما خصوا به من المهارة والحدق في تأويل النصوص وقلب ظواهرها ،

وبما جبلوا عليه من القدرة على اللعب بالالفاظ والجمل ، وبما لجؤوا اليه من طريقة الجنوح الى الاساليب الغيبية وكثرة ما استخدموا من نظريات ما بعد الطسعة - المتأخرين - استطاعوا ان يصلوا الى التوفيق بينهما ، حتى اصبح الناس وهم يعتقدون بانهم اعتقدوا ، بان خلق الكون كان فجأة وفي برهة واحدة . بيد انه امتد الى ستة ايام سويا .

من الجهود التي بذلها اللاهوتيون في سبيل التوفيق بين هاتين النظريتين نزر يسير كان خصب الانتاج متعدد الآثار ، حتى لتجده خليقاً بأن يخص بقسط من عناية الذكر . فان آباء الكنيسة ، في الشرق وفي الغرب ، قد كونوا محمد عما كان بن آدم من روامات سفر التكوين والاشارات التي وردت الامثال ، سفر آية ب ، هيكل صخامت العلم المقدس ، كل جزء منه عمت الى هذه النظرية بسبب . اما خلق الكون فجأة ، فقد لجؤوا لدى النظر فيه الى القول بما تصوروا من قوات سرية خفية منبثة في تضاعيف بعض المكونات العددية . فان « فيلويهوداوس » بينما مضى معتقداً بنظرية الخلق الفجائي ، قد أعلن بجانب هذا الاعتقاد ، أن الكون قد صور في ستة أيام ، « لان العدد ستة ، من بين كل الاعداد ، هو الاكثر اتجاهاً . » ولقد أظهر أن خلق الاجرام السماوية لم يقع الا في اليوم الرابع ، « لما في العدد أربعة من صفات الالفه والاتساق . » وان خلق الحيوانات كان في اليوم الخامس ، إشارة الى الحواس احسن . وأن خلق الانسان في اليوم السادس فيه تلميح الى ما في العدد ستة من الفضائل التي وضعت ذلك العدد كجد مهم للعلم الخلق الخطر . ثم عمد الى هو أكبر من كل هذا فأشار الى ان راحة اليوم السابع ، انما تشير الى تلك الفضائل العظيمة السرية الكامنة في العدد سبعة .

ولقد أيقن القديس « جيروم » بأن السبب في ان الله لم يصف ماتم من العمل في اليوم الثاني من أيام الخلق بأنه « حسن » ، إنما يرجع الى شيء هو شر بذاته مفروض وجوده في العدد اثنين . وهذا الرأي قد تردد صداه عن طريق « بيده » وفي جنبات بريطانيا العظمى ، بعد عصر القديس « جيروم » بقرون طوال . أما القديس أوغسطين فقد قدم الزم الكنيسة بهذا الاعتقاد متبعاً طريقة التدليل الآتية . فقال :

« يوجد ثلاث فصائل من الأرقام . الأكل والكامل والناقص . وهذا بنسبة ما يكون في مجموعهما من الزيادة أو المساواة أو النقص عن العدد الأصلي . والعدد ستة هو أول عدد كامل . وعلى هذا لا يجب أن نقول أن العدد ستة كامل لأن الله قد انتهى من كل أعماله في ستة أيام ، بل لأن الله قد انتهى من كل أعماله الخلقية في ستة أيام ، لأن العدد ستة هو العدد الكامل .

ولقد ظلت جنابات الكنيسة تتجاوب بأصداء هذه الأقوال طول القرون الوسطى حتى لقد ردد صداها بعد أن استكشفت أمريكا بعام كامل مصبوبة في القالب الآتي : —

« ان خلق الأشياء قد تتضح حقيقة بالعدد ستة ، الذي تشير أجزاءه الثلاث الأولى ، واحد واثنين وثلاثة ، الى صورة مثلث »
 هنا أصبح الاعتقاد بأن الخلق قد حدث فجأة في حين أنه تم في ستة أيام كل منها ثمار وليل ، اعتقاداً عاماً شاملاً ، حتى لقد أجاز به بطرس لومبارد وهو غو السانفكتوري ، وكلاهما جهبذ ذو وزن وصيت ، بل الزم العقل الكنسي أن يعطي له خاضعاً عصوراً طوالاً .

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد . فان طرق هذا التأمل الذهني — في القول بأن كل شيء قد خلق من لا شيء ، والتوفيق بين الخلق الفجائي والخلق في ستة أيام — قد نما وتطور من طريق فئة أخرى من كبار المفكرين في القرون الوسطى . فان القديس « هيلاري بواتييه » قد حاول أن يوفق بين التصورين فقال :
 « على الرغم مما هو واضح مما جاء به موسى من الظواهر الدالة على اتباع نظام مطرد في تثبيت القبة الزرقاء ، وفي تمهيد الأرض اليابسة ، وفي تجمع المياه بعضها مع بعض ، وفي تكوين الأجرام السماوية ، وفي قيام الكائنات الحية في الأرض والماء ، فان خلق السموات والأرض وبثيمة العناصر قد رؤى أنه نتيجة عمل وقع في برهة واحدة » .

أما القديس توماس اكونياس فتمد استخلص مما جاء به القديس اوغسطين تفصيلاً دقيقاً فيه حذق ولباقة ، ذلل خلال عصور طوال كثيراً من الصعاب التي كانت تعترض هذه القضية إذ قال بأن الله خلق مادة الأشياء في لحظة واحدة ، ولكنه قضى ستة أيام في العمل الإبداعي مفرقاً بين العناصر ، مصوراً

للاشكال ، منمقاً في التفاصيل .

ولقد قبل متقدمو المصلحين هذا الرأي ونموه ، وكان لوثر في مقدمتهم ، فاعلن بما عرف فيه من شجاعة واقدام أن موسى « قد تكلم في صراحة وجلاء ، ولم يلجأ الى المجاز والاستعارة » . وعلى هذا « يكون العالم وكل ما فيه من المخلوقات قد خلق في ستة أيام » . ولكنه مضى بعد ذلك مظهراً كيف أن كل الموجودات بتأثير معجزة كبرى ، قد خلقت فجأة وفي لحظة واحدة . وكذلك ميلانكوتون فإنه صمم على القول بأن العالم قد خلق من لا شيء بطريقة خفية وفي لحظة واحدة وفي ستة أيام معاً ، معتمداً على النص القائل « تكلم فخلقت » (١)

هذا بعض ما أورتتنا إياه العصور الوسطى من صور اللاهوت المذهبي . ومما يؤسف له أن هذا الميراث لا يزال شديد الاثر في عقول فئة من رجال الدين في هذا العصر استحلّت في أمريكا أن تطرد استاذاً من اساتذة العلم لقن لطلابه مبادئ النشوء والارتقاء على القواعد الداروينية . وما نظن أن الذين يرثون عقلية القرون الوسطى يمكن أن يكونوا أقل ممّا رأينا تعصباً أو أكثر تسامحاً مع من يقولون بأن الجاذبية سبب النظام الكونى أو ان النشوء سنة الخلق . ولا تزال هذه الروح الخبيثة متفشية حتى اليوم في كثير من انحاء الارض . ففي التاسع من شهر يوليو الماضى التأمّت الجمعية العمومية للكنيسة المشيخية في ايقوسيا بمدينة بلفاست ، لتستعرض بهياتها الموقرة تهم الهرطقة التى وجهت الى أحد اساتذة جامعتها اللاهوتية دكتور ج . ا . دايفى . وكانت أخطر تهمه وجهت الى هذا الاستاذ أنه لقن تلاميذه على الطريقة العقلية فخرج بذلك عما تميزه الكتب المقدسة وناقضها . وكان القائم بالاتهام مستر مونغميرى . فقال بأن الاستاذ دايفى قد لجأ الى طريقة النقاد المحدثين وفضل هذه الطريقة على السنن الذى اتبعته الكنيسة المشيخية منذ أقدم العصور حتى اليوم . وان النقد الحديث وما يدعونه بالتجديد قد لعنه كل الذين لا يزالون حتى اليوم خاضعين لله منيبين اليه ، ولكلمته القديمة . وقال يوسف جوليفر أنه قرأ ما كتب الاستاذ دايفى فاذا به يؤيد تلك الطريقة التى تبعد الانسان عن روح الدين وترمى به فى احضان الشك واللاأدرية ، وانه

(١) ترجم في كل هذا الى كتاب تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم في عصور النصرانية .

بمقدار ما في كتابات هذا الاستاذ من حرية الفكر يكون بعد الذين يعتقدون بصحة
ماقال عن الخلاص وعن الاخلاص لروح الكنيسة .

غير أنه على الرغم من أن التهم التي وجهت الى الاستاذ دافى قد رفضتها
الاجلبية العظمى من رجال الكنيسة المشيخية ومجموعها الاعلى فان تكرار مثل هذه
الحوادث دليل على أن ميراث القرون الوسطى لا يزال شديد الاثر في نفوس فئات
من رجال اللاهوت في القرن العشرين ، عصر النور والعرفان .

التباين في الكائنات الحية

(بحث علمي)

ان أظهر خاصية في أفراد الكائنات الحية من نبات وحيوان هي تلك النزعة
التي كانت وما زالت أساس كل الابحاث البيولوجية التي تتناول تكون الانواع
الا وهي نزعة الفرد لأن يبين بقية أفراد النوع وينحرف عن صفاتهم القياسية
إما في صفة اوخاصية جسمانية بعينها، واما في مجموعة من الخواص والصفات . فاذا
كان هذا التباين قاصراً على صفة واحدة فقط ، وجدت في أفراد كثيرة بحيث
يؤلفون مجموعة أو فرقة تمتاز عن بقية أفراد النوع الذي يشملها ، فأنها تدعى
عند علماء الحياة والتاريخ الطبيعي « تباينا » أو « تغيرا » . واذا تعدى التباين
Variety والانحراف إلى أكثر من صفة أوخاصية واحدة اعتبره العلماء « نوعا »
قائماً بنفسه . أما البحث في موضوع التباين أو التغاير والفروقات القائمة بين أفراد
النوع الواحد، فلم تقم على قاعدة علمية إلا منذ قيام داروين وولاس ، وابانا ماله
من الشأن في جميع المباحث البيولوجية والتاريخ الطبيعي ، وأنه الأساس الذي
يجب أن يبنى عليه كل نظريات العلماء ومباحثهم في الوراثة ونظريات التطور
والانتخاب باقسامه من طبيعي وصناعي ولا شعوري .

على أن العلماء الذين عاصروا داروين والذين اتوا من بعده ، قد أخذوا عليه
أنه أقام نظريته في الانتخاب الطبيعي على فرضين دون أن يقيم البراهين على